

ضرورة الأمل



ليست مصادفة لغوية عابرة ذاك التشابه التام في الأحرف بين كلمتي "أمل" و"الم". يكفي استبدال موقع حرف واحد حتى تتبادل الكلمتان الأدوار، فيحل الألم مكان الأمل، والأمل مكان الألم.

وتقاد اللغة العربية تكون ملأى بمثل هذه "المصادفات"، التي تأخذ في المصرف والنحو تسميات متعددة، مثل "الطباق" و"الجناس" و"التصحيف" و"التورية" إلى آخر أشكال البديع والبيان، ما يدل على عظمة هذه اللغة وبراعة مستخدميها الأوائل، الذين جعلوها وعاء يسع العالم كله، وإن كنا الآن لسنا في وارد بحث لغوي أم نحو، لهما أهل وناس أكثر إماماً ومعرفة منا بخفايا اللغة وأسرارها الفاتنة.

ما نوده الآن هو الحديث عن الأمل، الأمل الضروري لكل إنسان كي يتبع حياته ويواجه ما فيها من تحديات ومصاعب ليست هينة على الإطلاق. حتى أولئك الذين يولدون وفي أفواههم ملاعقة من ذهب، لا تخلو حياتهم من الألم والمعاناة. فالمرض يصيب الجميع، دون تمييز بين غني وفقير، والحيرة تنتاب الكل دون تفريق بين حاكم ومحكوم، والمعاناة ليست وقفًا على فئة محددة من الناس، وإن كانت تتفاوت بين إنسان وآخر بحسب الظروف والبيئة، وسوها من عوامل تزيد أو تخفف مقدار الألم.

لعل أكثر الناس حاجة إلى الأمل هم أولئك المتألمون الذين يقفون على أبواب الرجاء طلباً للرحمة والخلاص. لهذا، يغدو الأمل أكثر التماسقاً بالألم. ولو دققنا جيداً لوجدنا في جوف كل "الم" أملاً ما، لولاه لما استطاع المتألم احتمال عذاباته وأوجاعه. هذه العذابات والأوجاع قد تكون جسدية، وقد تكون نفسية، من دون إغفال الترابط الأكيد بين الجسدي والنفسي. لكن، أيهاً كانت طبيعة الألم الذي نعيشه ونصارعه، فإنه يغدو أخفّ وطأة إذا افترن بالأمل، لأن فقدان الأمل يجعل الحياة مأساة وفاجعة لا تُطاق. وأقسى الآلام تلك التي تكون مقرونة باليأس والقنوط، بحيث يفقد الكائن البشري معها الرغبة في البقاء على قيد الحياة، ويستجلل الموت، أملاً في أن تكون النهاية هي الخلاص بذاته.

الألم لا يصيب فقط الأفراد، بل يصيب أيضاً الجماعات والشعوب. تكفي أحياناً جولة صباحية في أي مدينة تعيش أوضاعاً معقدة وأزمات وصراعات، لنكتشف أنَّ المعاناة الجماعية تتوزع على قسمات الناس بالعدل والقسطناس. ومقارنة بسيطة بين الشعوب التي تعيش ضمن دول آمنة مستقرة مزدهرة، وتلك التي تعيش في دول مضطربة غير مستقرة، تجعلنا نرى الابتسامة بادية على وجوه الجميع في الأولى، بينما التجهم سيد الموقف في الثانية

الأمل ضروري وأكثر من ضروري. لكن مهلاً.. من المهم جدًا ألا نقع في فخ الآمال الكاذبة أو الوهمية. علينا استنباط الأمل من جوف الألم الذي نعيشه عبر السعي الحثيث لمعالجة مكان من الداء وأسبابه. حينها يغدو الأمل نافذة حقيقة نحو المستقبل، لا مجرد وهم كاذب نقنع أنفسنا به لنصل إلى لاحقًا بصخرة الواقع الصلبية القاسية والمؤلمة.

أجمل الآمال تلك القابلة للتحقيق، وكلما حققنا واحداً رسمنا آخر جديداً.. وهكذا دواليك، كي نستطيع الاستمرار، ولعل أنجع السبل لتحقيق الآمال هو البدء من حلم متواضع قبل لأن يتحول حقيقة، وكلما أنجزنا شيئاً مهما كان بسيطاً ومتواضعاً تقدمنا نحو أمل آخر جديد.

هكذا إذا يغدو الأمر ضرورة للاستمرار شرط ألا يجعله فخاً للخيبة، وقد يدعاً قال الشاعر:

"أَعْلَمُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضِيقَ الْعِيشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمْلِ". ▶